

الأدب والغزو الفكري

بقلم نازك الملائكة



من الغزاة ، فتركناهم يغيرون نظام بيوتنا وطراز مدننا ، وسمحنا لهم ان يلقتونا اداب مجتمهم في السلوك والمعاملة واسلوب الحديث، وبينما نلبس ما يلبسون ونأكل ما يأكلون . وما من شك في ان بعض مسا اخذناه عنهم نافع وانما ننكر موقفنا العام من هذه المدينة الوافدة. فقد بتنا نترك ما هو جوهرى في حضارتنا وما نتفوق به على الغرب، لناخذ مكانه بضاعة رخيصة تضر بنا .

ولقد عرض للفكر العربي انهيار مماثل بازاء الحضارة الوافدة ، بلغ في هذه السنين الاخيرة اقصاه ، حتى اصبحنا نقلب المجلات العربية فنجد فيها مقالا عن (ارثر ملر) يجاوره مقال عن (بيير كورني) يليه مقال عن (برونو) ، ثم مقال عن (فولتير) ، فنعجب من ان تفكيرنا بات منحصر في اداب الغرب فلا نتحدث الا عنهم وكان ليس لنا ادب على الاطلاق . يضاف الى ذلك ان هؤلاء الكتاب لا يتخذون موقفا عربيا مما يكتبون عنه من ادب الغرب ، وانما يصدرون في تعليقاتهم عن عين الموقف الذي يصدر عنه الكاتب الغربي . فلو ترجمنا المجلة الى لغات اوربا لما وجد الغربي فيها اي جديد يشوقه . وما من انهيار يصيب امة من الامم اظلم من هذا ، فان انتاج هؤلاء الاعلام الغربيين يحتوي على اتجاهات ومبادئ تخدم الفكر العربي في صميمه ، فلو ارتفعنا الى مستوى شخصيتنا الحضارية لكنت لنا تحفظات واعتراضات على ما يقولون ، لا لاننا ننكر ما في انتاجهم من جوانب الجمال ، وانما لجرد اننا ابنا امة لها ادبها وحضارتها ودينها ، فاختلف وجهات النظر امر بديهي متوقع ، واما الاعجاب بكل ما يقولون ويعتقدون ، فلا يدل على اكثر من اننا قد فقدنا ايجابيتنا وبتنا لا نفكر .

ولقد شاع بين الناشئة العرب اليوم احساس ضعيف تمكن من نفوسهم مؤداه ان علينا اذا اردنا ان نبني الادب العربي ، ان نبتدئ تراثنا وماضيينا جملة (وانقبل) التراث الغربي دونما مناقشة او تدبر. وعلى اساس هذا الاحساس غرق الناشئة في الاخذ والافتباس والتقليد، حتى بلغ الامر مبلغ الخطورة . ولقد تأملت مظاهر الغزو في ادبنا الحديث طويلا فوجدتها تمكن في اربع جهات ساجمها فيما يلي :

١ - موقفنا من الاخلاق

واول مظهر من مظاهر الغزو في ادبنا اليوم اننا فقدنا اللمسة الاخلاقية فيما نكتب ، فمن سمات الفكر العربي الحق انه فكر اخلاقي، يدعو الى ارتفاع العقل الانساني الى مراتب الخير والكمال . وحسبنا من ذلك ان كلمة (ادب) عند الغرب كانت ترتبط بادب النفس كل الارتباط ، فالاديب هو الذي يروي من الشعر والنثر ما يرتفع بالروح ويسمو بالخلق . وقد بقي الشعر العربي ، قبل اختلاط العرب بالاعاجم ، صورة تنطق بالفضيلة والمروءة وكمال النفس . وقد قال احد الخلفاء الامويين لعلم اولاده (علمهم الشعر يمجدا وينجدوا) لان الشعر كان صورة النفس الماجدة ذات المروءة والخير . وقد ثبت هذا المعنى في عصورنا كلها . فبقي الادب من شعر ونثر يعرض ارواح الصور في السلوك والمعاملات ، كما يحفل بنماذج صافية من الاخلاق الجنسية . وبحسبنا ان نتذكر العشرات من دواوين الحماسة والشعر، ومجموعات الخطب والرسائل ، واقاصيص النجدة والمروءة وكتب الاشراد

لعمل الفرق بين الغزو العسكري والغزو الفكري هو الفرق بين المحسوس والمعنوي ، فهما كلاهما غزو وانما الفرق بينهما في الوسائل والنتائج وما يستثيران في الامة من طرق المقاومة . فالغزو العسكري يتصدى للقوة محافظا على شيء من الصراحة والعدالة . اما الغزو الفكري فانه لا يقتل بالنار والحديد وانما يهدم بالكلمة والحرف والمعنى ، وسوى ذلك من سلاح غير محسوس ، فهو ينطوي على الظلم والخبيث معا .

وانما وجه الخطر في الغزو الفكري انه يستهدف روح الامة وجنورها فلا يلقيها الا وهي اشبه بثمرة امتص رحيقها فلم يبق منها غير القشر والنوى . وما ذلك الا لانه يمسح شخصية الامة اي نبسح الاصاله والابداع فيها فيشلها عن النمو والحياة . بينما لا ينجح الغزو العسكري في اكثر من تخريب مظاهر السكن وال عمران ، وهي امور يمكن تعويضها لانها لا تمس جوهر الحضارة ولا روح الامة .

ثم ان مقاومة الغزو العسكري اسهل من مقاومة الغزو الفكري لسببين اثنين (الاول) ان الهجوم العسكري الصريح يستثير اغلبية افراد الامة فيهبون للجهاد ودفع العدو ، بينما لا يستثير الغزو الفكري الا القلة المدركة من عقلاء الامثوذوي الراي فيها . وسر ذلك ان الاغلبية قلما تستطيع ادراك المعنويات ولا هي تتحسس الخطر على حياتها من عدو يهاجم الافكار والآراء .

والسبب (الثاني) ان وسائل الامة في مقاومة الغزو العسكري ميسورة هي السلاح والعداء والجهاد بينما لا يجدي مثل ذلك في مقاومة الغزو الفكري لان العدو هنا غير مرئي ولا تقتله النار ، فلا بد للامة ان تلجأ الى اسلحة اصعب كالارتفاع الى افاق الاخلاق والثقة بالنفس وكرامة الذهن العام .

وبسبب هذه الاعتبارات كلها يسهل ان تغزى الامم المتوحشة غزوا فكريا . اما الامم العريقة المتحضرة فانها سرعان ما تنهض وتقاوم وتنهض وتنصر لان روحها لا تموت .

ولقد عرفت الامة العربية الغزو العسكري مرارا عديدة دون ان تعرف الغزو الفكري . ووجه ذلك اننا كنا في الماضي مصدر المعرفة والضيء في العالم ، وقد اعطينا حضارتنا الى الامم المجاورة حتى ونحن مغزورون يحكمنا الاجانب ، ومن ابسط الادلة على هذا ان الفرس الذين حكموا الارض العربية فترة ، لم يحكمونا الا عسكريا لاننا كنا خلال ذلك نحكمهم فكريا فلم يبادروا ارضنا الا وقد اتخذوا ديننا ولفتنا . ولذلك تج لفتهم اليوم بالاف الكلمات العربية ، فاذا تكلم الفارسي بفصحى الفارسية تحول كلامه الى العربية مع تغيير بسيط في قواعدها .

واما في عصرنا هذا ، بعد قرون الغزو الطويلة التي انهكتنا وشلت حياتنا ، فاننا فقدنا القيادة العلمية والصناعية ، وبات علينا ان نتعلم الدروس التي فاتتنا . ولقد كان يمكن لنا ان نتخار ما لناخذ عن الغرب ، فلا نسمح له ان يمس روحيتنا وجوهر حضارتنا ، غير ان الذي وقع غير ذلك فقد غزانا الغرب على جهات حياتنا كلها فلم يترك جانبنا الا حاول اقتحامه وهدمه . وقد كنا حتى الان سلبين في موقفنا

الإخلاقي وقد ترك المتصوفة وحدهم تراثا أخلاقيا عظيما كله نيسل وانسانية . وحسبنا ، على سبيل المثال ، ان تشير الى كتاب (الفتوحات المكية) لمحيي الدين بن عربي فقد وردت في الجزء الرابع منه مئات الصفحات في الاخلاق فيها من الخلق الكريم ما لا حدود لجماله وكماله . على اننا لا نحتاج ان نذهب بعيدا في التمثيل فان كتابنا الكريم (القرآن) يعرض من صور الاخلاق ما يكفي للافصاح عن روحية العربي . ومثله في الحديث النبوي واخبار الصحابة وادعية السجدة الامام زين العابدين وامثالهم ومؤلفات ادبية لا حصر لها في ادب النفس ومعاني الاخلاق . وقد تمثلت هذه القيم عمليا في قصصنا الشعبي عن سيف ابن ذي يزن وعنترة العبيسي وابي زيد الهلالي وامثالهم من قصص المروءة والبطولة .

ولم تفقد كلمة (ادب) مدلولها الاخلاقي الا في عصرنا ، فنحن اليوم نكاد نصد في ما نكتب عن المفهوم العربي للكلمة ، حيث تعني كلمة (ادب) Literature المعلومات والعلم ، ولا تتصل بالاخلاق . ويرجع فصل الغربيين بين الادب والاخلاق الى عهود قديمة فنحن نجد في منهج ارسطو الذي ادرجه في كتابه عن الشعر (Poetics) ان جمال الادب لا يستند الى الاخلاقية ، وانما هو معنى منزول لا شأن له بآية قيمة خارجية ، ومن السائغ عند ارسطو ان يكون الادب جميلا كل الجمال حتى وهو غير اخلاقي ، فلا دخل للمبادئ والمثل في الادب . وقد سيطر هذا المنهج على الفكر الاوروبي فبقي يتحدر من صفحة الى صفحة عبر تاريخ الادب والنقد ومن اسنده واضاف اليه الناقد الالمانى ليسنغ (LESSING) في كتابه العروف (Laocoon) ولسنا ننكر ان طائفة صغيرة من مفكري الغرب قد رفضوا هذا المنهج ودعوا الى ما يقرب من المفهوم العربي ، ومن هؤلاء الشاعر الرومانى هوراس (HORACE) والناقد الانكليزي فيليب سيدني (SIDNEY) والشاعر الالمانى فريدريك شلر (F. SCHILLER) الا ان هذه الاصوات تاهت في خضم الفكر المادي فلم تؤثر تأثيرا محسوسا، وبقيت الصورة الثابتة لاداب الغرب منفصلة عن الاخلاق حتى قال الفيلسوف المعاصر بنيديتو كروتشه (CROCE) نصا (لا شأن للاخلاق فسي الادب) وهذا الحكم يعبر افصح تعبير عن تيار التبطل والتحلل في ادب اوربا اليوم .

وتمتد جذور هذا التيار الى القرن التاسع عشر وقد بالغ في الدعوة اليه انصار المذهب الطبيعي (Naturalism) الذين جعلوا واجب الاديب ان يصف كل ما يقع للانسان دونما اعتبار لقيم الاخلاق ومصالحة المجتمع . وحسبنا للتمثيل ان تشير الى قصة اميل زولا (ZOLA) الممنونة Germinal فقد هبط الى ادنى مستويات الروح والخلق ، فوصف علما موبوءا تلعب به الفرائز الحيوانية على شكل يلقي الحضارة ويرد الانسانية الى عهود الوحشية والبربرية . وما من شيء يبدو لنا اشد ابلا من هذا فان زولا يرتفع في القصة نفسها الى افاق عالية من الفن والابداع ، فكانه يضع فنه وانسانيته في خدمة التفسخ ، ويساهم في قتل الحضارة .

ولقد اقتبس ادباؤنا العرب هذه النظرة الى الادب في اتجاهها السلوكي والجنسي حتى اصبح ادبنا يضم اشنع النماذج في الانسانية والخلق ، فالقصاصون المحدثون يصورون في قصصهم اشخاصا يعاملون اباؤهم في قسوة وخشونة واحتقار ويرسمون ابطلا يتناولون على اساندهم . وكما في القصائد والقصص من بذاءة وتبذل في اللغة ، وقد اصبح نموذج البطل ان يجعله المؤلف كثير السب واللعن ، ضيق الصدر ، ضعيف الخلق لا يرتفع عن شيء . وشاعت صورة البطس المتفك الذي يبصق في الطريق ولا يعترف باية قيمة للاشياء والاشخاص . وكل هذا مناقض لادب النفس العربية الذي عرفه تراثنا . وانما هو موقف منقول من الغرب ، ذلك ما نجد في القصص الحديثة هناك وفي الذكريات والرسائل ، فكان من علامات الثقافة الجديدة هناك ان يكون الانسان مبتذلا فاسيا مغرورا لا يتورع عن شيء .

اما النظرة الجنسية في ادبنا الحديث فلمسها في ذلك الركام

الهائل مما كان قبل يسمى بالادب المكشوف ، فاصبح اليوم لا يسمى حتى بذلك ، لان ادب الجنس اصبح يعتبر مظهرا من مظاهر الواقعية والتحرر الفكري والثقافة الحديثة . فما يكاد الناشيء يكتب ، حتى يصطنع الفرق في الرذائل والاستهتار بالقيم . ولا نهاية اليوم للكتب والمجلات التي تقذف بها المطابع ويصور فيها الانسان العربي وكأنه قد تحول الى حيوان اعجم لا يرتفع الى اعلى الجسد والحواس . وقد قرأنا في دواوين الشعر التي صدرت هذه الاعوام عجا عجابا مسن الاسفاف والجموح ، حتى اصبحت هذه ظاهرة اكيدة تطبع الانتعاج الجديد . ومن عجب ان الحكومات الغربية ما زالت غافلة عن هذه الظاهرة ، فلا تراها تتخذ اجراء بازائها ، لا في حقل النشر ولا في حقل التعليم والتوجيه . والواقع ان وراء هذه الظاهرة ثلاثة معان كلها خطيرة ينذر بالشر ...

أ - المعنى الاول ان هذا الادب المتحلل ، الذي يهدم الاخلاق والمجتمع ، يتعارض مع الدعوة القومية التي يعيش لها المجتمع العربي اليوم . فالقومية بناء وحياء ، بينما ادب الجنس هدم وانتحار . تهدف القومية الى بعث الامة العربية بقدراتها الاصلية وماضيها الحضاري الوهاج ، بينما يهدف ادب الجنس الى هدم الاخلاق والعقائد والقيم . ومن ثم الى هدم المجتمع . قال ابن خلدون في مقدمته (اذا تأذن الله بانقراض الملك من امة حملهم على ارتكاب المنومات وانتحال الرذائل وسلوك طرقها فتفقد الفضائل منهم جملة ولا تزال في انتقاص الى ان يخرج الملك من ايديهم .) واستشهد بالآية الكريمة (واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) والحق ان من يتأمل هذا الادب الجديد تأملا نزيها ينتهي الى الشعور باننا نعمل للقومية العربية بينما نترك ادبنا يعمل ضدها .

ب - المعنى الثاني ان هذا الادب لا يعبر تعبيرا سليما عن البيئة العربية المعاصرة ، وذلك لان الفرد العربي المتوسط ما زال يعد قضية الشرف فوق كل القضايا . والمثل الاعلى في حياتنا الشعبية ، وفي حياة الاسرة العربية ، هو مثل العفة والاحتشام وادب اللسان . واذن فان هؤلاء الابداء الناشئين قد انبتوا عن بيئتنا وياتت مراياهم تعكس اشباحا وظلالا من خارج الوطن العربي .

ج - والمعنى الثالث ان هذا الادب ليس ادبا صحيا سليما . لان تضخيم اثر الجنس في الحياة ينم عن انحراف في الطبيعة الانسانية ، والانسان السليم مزيج متوازن من العقل والروح والعاطفة والفريضة ولا يطفى فيه جانب على جانب . ومن كمال المجتمع ان تكون اغلبية افراده من المتزنين الذين يعطون كل جانب من طبيعتهم حقا . ولا نظنه يخفى ان الاستفراق في حماة الحواس ينتهي الى زوال الكرامة وضعف الارادة واختلاط الذهن . ومن ثم فان طفيان المعاني الحسية على ادبنا ليس اقل من مظهر يدل على عدم التوازن وينذر بتصدع خطير في حياتنا العامة .

٢ - موقفنا من الدين

كان لاقبالنا الشديد على قراءة اداب الغرب ونقلها الى لغتنا اثر سييء في حياتنا العقلية الحديثة ، فما لبث ان اصابها بالانحراف . فلقد اخذنا عنهم فيما اخذنا موقفهم من الدين ، والتفتنا نظرهم المادية الى الحياة . وموقفهم من الدين يختلف اختلافا جسيما عن موقفنا نحن - فان الدين الاسلامي يرتبط كل الارتباط بالفكر ، وقد قامت حول القرآن اركان اللغة والادب والفقه والمنطق والتصوف والفلسفة جميعا بحيث تعد هذه العلوم كلها نفيحات لعلم القرآن ترتكز اليه وتسدور حوله . لا بل ان طلب العلم ونشره قد بقي هو نفسه واجبا دينيا مفروضا يؤديه الطالب والعالم قربي الى الله . ومن ذلك ان النحوي العلامة ابن مالك كان يخرج ويقف على باب مدرسته ويقول (هل من راغب في علم الحديث او التفسير ؟ قد اخلصتها من ذهني) فان لم يجد راغبا او طالبا قال (خرجت من آفة الكتمان) وتفسير ذلك ان العربي كان يعتقد ان لله حقا (فيما استودع العلماء من فهم وعلم وانه اخذ عليهم البيان(1)) فلا يصح لهم السكوت عن نشر العلم واطهار

الحق وتعرية الباطل .

اما في اوربا فان الدين يتصف بشيء من الانعزال عن الحياة فلا يرتبط بالادب والفكر الا من بعيد ، فالعربي يعد الدين لله والادب للحياة وكان الحياة نفسها ليست لله ، كما يعتقد العربي . ولذلك الموقف سببان اثنان :

(الاول) ان المسيحية ، بتقريرها لقيام الخطيئة الاولى ، وبدعوتها الى التفكير بالرهينة والامتناع عن الزواج ، قد احتفظت بنظرية مثالية لها جمالها غير انها عسيرة التطبيق . ولذلك بعد الدين عن الحياة بعدا طبيعيا ، وهو امر لم يعرفه المجتمع المسلم حيث الدين يجعل الزواج سنة مفروضة .

(الثاني) ان المسيحية ، التي نزلت في بلاد العرب ، قد فشلت في تحويل العربي تحويلا كاملا عن وثنية اباؤه ، فبقي ثنائي العقيدة ، يصلي لله ويؤمن ، رغما عنه ، بالهة الاغريق ، حتى انه يقسم في حياته اليومية بجوبيتر ، كبير الهة الاغريق ، وهو يذهب يوم الاحد الى الكنيسة للصلاة ، ولا يلبث ان يرجع ان منزله ليقرا الفلسفات اليونانية ويكتب ادبا طابعه وثني تتردد فيه اسماء الالهة الشريرة التي كان يعبدها اليونان والرومان . وانما نصف هذه الالهة بانها شريرة لانها كما قرر (سقراط) نفسه ، لا تتورع عن ارتكاب الشر والجريمة والصفائر فهي كالبشر وانما تتفوق في القدرة على الابداء والظلم . وبسبب هذه الوثنية الغربية بقي المسيحيون العرب اوثق صلة بالمسيحية الحقنة من مسيحي الغرب .

ولقد دعا الغزاة واعوانهم عبر السنين الماضية الى ان تحتضن الثقافة الغربية بكل ما فيها دونما تدبر او مناقشة ، فكان مما اخذناه عنهم هذا الفصل العجيب بين الدين والحياة . وقد كان لذلك تأثير سييء في حياتنا وفكرنا ، لان الدين الاسلامي يكاد يكون هو الحياة نفسها ، فلا نستطيع انتزاع احدهما الا بانتزاع الاخر ، فقد كان الاسلام ديننا الهيا وثورة سياسية وفكرية واجتماعية معا . ولذلك اهتزت له الارض العربية اهتزازا خصبيا ، واحدت انقلابا عميقا في مناحي الحياة معا . ولم يترك الاسلام في حياة العربي شاردة ولا واردة الا صبغها واحصاها . وقد كان القرآن كتابا شاملا فيه اللغة والادب والشريعة والاخلاق جميعا فبني عليه تراننا كله . فاذا فصلنا الدين عن الحياة لم يكن معنى ذلك الا ان نفصل العروبة عن تراننا وحضارتها . ونحب ان نضيف الى هذا ، ان القرآن - باعتباره كتاب الدين الاسلامي والثقافة معا - سيبقى ابدا كتاب كل عربي مهما كان دينه . فالمسيحي العربي والحضارة ، لا يستطيع ان يتزعم من نفسه وذهنه اثار القرآن ، لان التراث الاسلامي قد كان وما زال الثقافة الكبرى للعربي . وما نحن نرى اخواننا المسيحيين يحققون غير قليل من كتب التراث الاسلامي في اخلاص يثبت ما نقول اجمل اثبات .

ولقد اتخذ الادب الجديد الذي ينشره اليافعون العرب موقف الغربيين من الدين ، فظهرت عندنا الوثنية مصحوبة بالاحاد في ادنى مستوياته ، وهو مستوى الكفر بدافع التقليد والنقل ، فلا شك في ان هذا الاحاد اوطأ مرتبة من الاحاد مصدره شك يعتري النفس فيضلها ويحيرها . وقد واكب هذا اعتماد الجيل اليافع عن القرآن وما فيه من اجواء روحية وكنوز اخلاقية وثروة لغوية وادبية . وكل ذلك لا يبشر بالخير فاذا مضينا فيه قطعنا جذورنا الحضارية واضعنا الروح العربي جملة .

٣ - موقفنا من اللغة العربية

كانت وسيلة الغزاة العظمى في اضعاف لغتنا فسي الترجمة . والترجمة في ذاتها اغناء للغات ومد لافاقها ، فهي حق لنا وضرورة تنمusk بها . غير ان الاثياء النافعة في الحياة الانسانية يمكن ان تتحول بسوء النية الى شر وضرر . ولذلك حرصت بعض المؤسسات

(١) صورة معدلة من عبارة لعبد العزيز بن يحيى الكنتاني (الحميدة).

تحقيق جميل صليبا .

المشوهة والجماعات المفرضة على ان تعهد بترجمة امهات الكتب الغربية الى كتاب ضعاف غير متمكنين من العربية ، فصاغوا تلك الكتب العظيمة صياغة حرفية ركيكة ، كان لها اثران سيئان في حياتنا الفكرية (الاول) ان كثرة قراء هذه الترجمات قد نجحت في تحويل الركافة الى مذهب في التعبير ، فادى ذلك الى اضعاف المستوى العام للغة . و (الثاني) ان هذه الترجمة الركيكة حرمتنا فرصة تكتسب فيها لغتنا تعبيرات عربية جديدة لها الفصاحة والجدة معا . لان الكتاب المترجم اذا صيغ بعربية سليمة لها خصائص لغتنا افاد اللغة واغناها . اما اذا ترجم حرفيا فانه يخسرنا كما نخسره .

والمثل الذي نختاره للترجمة الركيكة وما تصنع هو ترجمة الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد فقد ترجم هذا الكتاب الجليل ، الذي يقده المسلم والمسيحي معا ، ترجمة ركيكة لا يقبلها الذوق السليم فانرت في اضعاف الذوق الادبي العام واشاعت فينا العجمة . واخواننا المسيحيون العرب ذوو حظ كبير من البلاغة العربية وقد نبغ منهم كتاب كبار وباحثون وشعراء اغنوا مكتبتنا فلا يصح لهم السكوت على مثل هذه الترجمة التي تشوه كتابهم ولغتهم معا ونحرمنا قراءة سيرة السيد المسيح والتمتع بما لها من روحية وجمال .

وقد انحطت لغة الترجمات واقتربت من الحرفية عاما بعد عام ، حتى درجت اليوم منها لغة ركيكة قواعدها واساليبها غير عربي . وسوف ندرج فيما يلي مظاهر العجمة العامة في هذه اللغة .

١ - كثرة الاصطلاحات الاجنبية التي يصر المترجمون على ابقاء صيغتها الغربية مثل قولهم فولكلور وايدولوجية ، واكاديمية، وكلاسيك، وميتافيزيكية ، وبيروقراطية ، وكنتيك ، وليبرالية ، وامبريالة ، وامثال ذلك كثير .

٢ - استعمال قواعد النحو اللاتيني مع انها في مقاييسنا النحوية تعد غلطا ، مثل تعدد المضافات الى مضاف اليه واحد وهو ما يسمى عندنا بلغة (قطع الله يد رجل من قالها) : ومثل الفضل بين المضاف والمضاف اليه بكلمات اجنبية وهو ريك مستحيل في لغتنا لان التضاييفين ينزلان منزلة الاسم الواحد . ومن هذه الاساليب السقيمة تقديم الحال على عامله كقولهم (محملا يعود سيدي) ، ومنها تتابع الاضافات كقولهم (تقرير رئيس لجنة مكافحة امراض المنطقية الحارة) وكل هذه الاساليب الغربية تصدم السمع العربي صمدا اكيدا .

٣ - استعمال اساليب بناء العبارة اللاتينية وهي تخالف اساليبنا مخالفة مرجعها الى الفروق بين طبيعة اللغات . ومن ذلك تأخير الفعل في الجملة فلا يرد الا بعد ان يتقدم عليه سطران كاملان من الظروف والمجوررات والمعطوفات كقولهم (بمثابة شديدة واهتمام) ، ومن دون ان يتحدوا في ذلك الموضوع مباشرة ، او يثيروه ، على نطاق عام ، وبعد ان فرغوا من دراسة التقرير ، اشتغلوا في توزيع الملابس على سكان (الحي) . وهذا مخالف لما نعرف لغتنا حيث يتقدم الفعل على معمولاته لانه اشرف ما في العبارة ، ولا يتقدم الممول الا في حدود الفصاحة ، في مجالات بلاغية محدودة .

٤ - استعمال وسائل البلاغة اللاتينية بدلا من العربية كقولهم (انسحب بانتظام ، والسوق السوداء ، والحرب الباردة ، ومؤتمسر القمة) حتى تكاد ننسى ان لنا تلك الكنوز من وسائل البلاغة ولنسنا بهذا نحاول ان نطلق لغتنا بازاء استعارة جميلة قد تنفعنا ترجمتنا، وانما نريد التنبيه الى موقفنا العام من ذلك فنحن اليوم نكاد نقف عن التفكير باللغة العربية فنترجم كل صيفهم دونما تدبر .

٥ - تقليد العبارة الغربية الحديثة في تعقيدها وغموضها كما في كتب (هنري جيمس) JAMES و (وولتر بيتر) W. PATER وذلك بالاكثار من الجمل الاعراضية ، والفصل بين المبتدأ والخبر بكلمات كثيرة تربك القارئ . ومنه ايضا استعمال العبارات الطويلة طولا فادحا . وكل ذلك مما لا تسيفه بلاغتنا .

ولا بد لنا بعد هذا الاستعراض ان نذكر بان انكارنا للاساليب اللاتينية لا يعني اننا ننتقصها في لغاتها الاصلية ، وانما نعد تلك

الاساليب بليغة في اللاتينية ركيكة في العربية ، لان لكل لغة قواعدها وقيمها البلاغية . وما قواعد اللغات الا مزيج من نفسية الامم وتاريخها وحضارتها وفكر الامة يرتبط بقواعد لغتها واساليب بلاغتها كل الارتباط بحيث لا نملك ان نترجم لغات القرب ترجمة حرفية الا اذا قضينا اولا على الفكر العربي .

ومن الحق ان نشير كذلك الى ان الترجمات الضعيفة في اسواقنا لا تصدر كلها عن سوء النية وانما ضعف بعضها نتيجة الجهل باللغة والتراث .

وقد ابتليت العربية في هذا القرن بكثير من الدعوات المشبوهة التي نادى بها مفرضون يضمرون السوء للعربية ولقتها فرددها من العرب طائفتان طائفة الشعوبيين الذين يقصدون اضعاف العربية ، وطائفة البسطاء الذين تخدعهم الفاظ الحرية والتجديد فيسيئون دونما قصد . فمن هذه الدعوات ، الدعوة الى نبذ الحرف العربي واتخاذ اللاتيني في مكانه ، والدعوة الى استعمال اللهجات العامية في الازاعة وفي ادب القصة والمسرح . . وقد تصدى لهذه الدعوات كثير من كتابنا الافاضل فناقشوها وردوها الى اصلها المشبوه المرعب . وما من جهة تستفيد من اثاره هذه القضايا مثل الغزاة ، فهم يعلمون انه اذا وقع الفصل بيننا وبين تراننا انتهى الامر بنا الى اخطر تصدع عرفته الامة .

٤ - موقفنا من المعنوية الغربية

يحرص الغزاة واعوانهم من الشعوبيين على قتل المعنوية العربية واحلال المعنوية الغربية محلها ويكادون اليوم ينجحون في ذلك ، فقد طلع في السنوات الاخيرة ادب عربي جديد تنعكس فيه سمات النفسية الأوروبية ، ومظاهر الادب الغربي ، وقد استعان الغزاة في عملهم هذا بوسائل معنوية مكتنتهم من اجتناب الجيل العربي الناشء الذي يملكه بقلته علمه وتجاربه ، استعدادا فطريا للتأثر . والوسيلة الكبرى للتأثر في اليافعين هي استعمال القيم الرفيعة التي يحرصون عليها مثل الإنسانية والحرية ، فباسم هذه القيم يتم تضليلهم فيوجهون توجيهها يحطم المعنوية العربية .

اما الإنسانية فان الشر الذي يستز وراها اليوم هو قولهم (الادب العالي) . وبه يوحون لليافعين ان هناك ادبا عاليا يتخطى الحدود ويعبر عن نفسية الشعوب اجمعين ، بممزول عن ظروفها وشخصيتها ، وان هذا الادب لا يناقش وانما يقبل في كل مكان ، فمن لم يقبله كان جامدا او رجيا او جاهلا . وهم يضعون على عرش العالمية مجموعة من الاسماء الغربية في الغالب ويسألون الشباب ان يعجبوا بكل حرف يقوله اصحابها دونما فحص ولا مناقشة . وبرز هذه الاسماء تأثيرا في حياتنا جان بول سارتر الاديبي والفيلسوف الفرنسي اليهودي . وسارتر من الناحية الادبية ذو فكر مبدع يسمو الى الدرر العالية وانا اول من يقر له بالقيمة والقدرة . وانما وقع الانحراف المفرض في فرض ارائه على القارئ الطالع . ووجه ذلك ان الاديبي الغربي قد يكون عظيم الشهرة ، ذا تأثير في اوروبا كلها دون ان يعني ذلك ان اراءه تنفعنا او تنفق مع مطالب حياتنا الاجتماعية والفكرية . والواقع ان اراء سارتر اغلبها تناقض روحيتنا وحضارتنا فلا مصلحة لنا في اعتناقها الا اذا اردنا ان نهدم انفسنا . ذلك ان جان بول سارتر ناشر فلسفة القثيان ، ومضمونها ان المجتمع بغيض ، وان وجود الناس حولنا هو الجحيم ، وان الاخلاق والمثل والتقاليد سخافات ينهل بها السطحيون ، وان الحياة خواء فارغ فلا يستحق الاهتمام فيه الا الجيد والجنس ، وان الانسان غير مسؤول لا امام الله ولا امام الضمير ولا امام المجتمع . ولقد انتهى الجيل اليافع الى تصديق خرافة العالمية فلم يقف عند الاعجاب بالاشكال الادبية واللغات الفكرية والاساليب التعبيرية ، وانما قلد النظرة واعتنق الآراء .

واما القيمة الثانية التي يستفلونها في تضليل اليافعين العرب ، فهي الحرية ، وقد زعموا انها معنى مطلق لا يتقيد بشيء فكل احريسة افضل من كل تقيد . وما من الحاد اجتماعي واخلاقي افزع من هذا . فان المطلق معنى لا وجود له في الحياة الإنسانية ، لان منفعة الجماعات تتحكم فيه فتغيده وتشد به . وهذا الزعم يجعل الحرية تتعارض مع

الفضيلة ، ولا ينبغي للاخلاق ان يتعارض شيء منها مع شيء . وحسبنا دليلا على ذلك التعارض ان الحرية المطلقة للفرد تناقض مصلحة المجتمع ، ولذلك تقيد بحفظ حقوق الاخرين ، ومصلحة الجماعة كلها . وعلسى هذا تبطل حجة الذين ينادون بحرية الاديبي في نشر ادب الجنس والاحاد ، فان هذا الادب يهدم المجتمع ومن حق الجماعة ان ترفضه . فلا يحق للمواطن ان يطعن امنه في صميم كيانها الروحي والخلفي بدعوى حقه في الحرية .

وهكذا اتجه ادبنا الحديث بدوافع من الإنسانية وحرية الفكر ، الى تديد اراء الغربيين ، دونما فحص او مناقشة ، فانتشرت روحية التساؤم في ادبنا ، وشاع الاحساس بان الحياة عيب وان العدم خير من الوجود ، وان المشاعر الطيبة قد للانسان ، وان الانسان غير مسؤول امام شيء . ولا يمكن للباحث المتأمل الا ان يلاحظ مدى بعد هذه النظرة عن طبيعة الحياة العربية اليوم ، فنحن نمر بفترة خصيبة راقعة ، وقد رأينا مدننا الكبيرة تنهض من الفراغ في ظرف ثلاثين سنة فقط وشهدنا الاستقلال من الحكم الاجنبي وقيام الحكومات الوطنية ونهوض التعليم ورأينا كيف اختلف جيلنا في معارفه واسفاره وعلومه عن جيل آباءنا . واليوم نعيش فترة انتصارات القومية العربية وتكاد اعيننا تكتمل بفجر الوحدة . وما من شك في ان الفرد العربي احسن حالا واكثر املا مما كان فلا ندري من اين ياتي هؤلاء الاديبي بالعمدية واليأس وانكار الحياة . اترى حياتنا الادبية تسير في اتجاه معاكس لحياتنا القومية ؟ وتبحث عن الجواب عند نقادنا فلا نجد لديهم اكثر مما نسع من الناقد الغربي من ان هذا الجيل - كما يقولون - (ذو ركيبة مزاجية معقدة تفقد الحياة التي يحياها) فكانهم لا يرون الفرق العظيم بين الفرد العربي والفرد الاوروبي . والواقع ان بيننا وبين الغرب ثلاثة فروق جوهرية .

(الاول) اننا ابناء امة تؤمن بالروح والروحيات وتضعها فوق المادة ، بينما ما زال الغرب يؤمن بالمادة والماديات . ومن مظاهر ايمان الفرد البسيط هنا بالروح انه يتوكل على الله في اموره كلها فلا يعرف اليأس ولا القنوط ، وهو مؤمن بالحياة كل الايمان ، تتحدرد اليه هذه النظرة من عهد سحيق . وقد عرفنا في التراث العربي كله صفة الايمان والتفاؤل ، فحتى شعر الزهاد كان مليئا بالحياة بما فيه من تطلع الى الله ، وايمان بالاخلاق والتضحية ومساعدة الاخرين .

(الثاني) اننا نختلف عن الغرب في الظروف التاريخية التي نمر بها ، فنحن نمر بفترة حياة وانبعات تهتز لها ارضنا كلها . ان مشاكلنا القومية ، وضحنا نحو فلسطين ، ومعركتنا في حرب الفقر والجهل والمرض والبطالة ، كل ذلك يمنحنا هدفا يستغرق حياتنا وكياننا . والمعروف عند علماء النفس ان المشغولين لا يجدون وقتا للقلق واليأس والاحساس بالفراغ . وفي مقابلنا يجد الغربي نفسه فارغا له كثير من الوقت وقليل من الاهداف . ان في حياته فراغا روحيا عميقا سببه عدم ايمانه بالله ، وخلو حياته من الاهداف الكبير الذي يضفي الجمال والرونق على الحياة .

٢ - واخر الفروق بيننا وبينهم ان الغربي يرى غذاءه يصل اليه عن طريق استعمار الامم وسرقة قوتها ، ومن ثم فهو يحس قلقا غامضا لا يعرفه العربي الذي يأكل القليل الحلال ويحمد الله وينهض الى عمله . وقد اشار الفيلسوف الالماني المعاصر (البيرت شفابتزر) A. SCHWEITZER في كتابه (فلسفة الخضارة) (١) الى اثر هذا الظلم في نفسية الفرد الاوروبي الذي اصبح لا يقوى على الاحساس بجمال الحياة .

ان هذه الفروق بيننا وبين الغرب تجعل نقلنا لموقف اليأس والعمدية والفراغ امرا لا معنى له سوى تخليتنا عن كرامتنا ومصالحنا وشخصيتنا . فكاننا نكبى في يوم عيدنا . ويحاول بمض الاديبي ان يبرروا الموقف بقولهم ان هذا الجيل اليافع هو جيل المأساة الذي شهد ضياع فلسطين ، فهو ينكر الحياة ويدعو الى الموت لذلك السبب . وذلك لتليل ابعد عن الحقيقة من السابق ، فان المأساة التي وقعت عام ١٩٤٨ قد ألهمت الوطن العربي كله بنار الكفاح والعروبة فقامت الثورات العظيمة في القاهرة والجزائر وبيروت وبغداد واليمن ، وعبر هذه

صدر حديثا عن :

منشورات عويدات

- **الناعقون (رواية لبزك)** غ.ل. ٥٠٠
قدم لها وراجعها الدكتور شكيب الجابري
- **قوت الارض لاندريه جيد** ٣٠٠
مراجعة الدكتور شكيب الجابري
- **بيروت والنافذة البيضاء شعر** ٢٥٠
هشام الكرمي
- **الهندسة والمهندس** ٨٠٠
للمهندس محمود الشكرجي
- **الضمان الاجتماعي - اندريه جيتنغ** ٢٠٠
- **التخلف المدرسي - اندريه لوغال** ٢٠٠
- **دراغانا - رواية -** ٢٥٠
تأليف محمد برجواي

تاريخ الحضارات العام احداث موسوعة حضارية

- ١ - الشرق واليونان القديمة ٢٥٠٠
- ٢ - روما وامبراطوريتها ٣٠٠٠
- ٣ - القرون الوسطى (تحت الطبع)

قريبا جدا :

آفاق الفكر المعاصر

تأليف نخبة عالمية معاصرة من اساطين
الاختصاص تتناول جميع ميادين المعرفة
في أكثر من ٨٠٠ صفحة من القطع الكبير

الثمن ٢٠٠٠ غ.ل.

منشورات عويدات

ص.ب. ٦٢٨ بيروت - لبنان
تلفون : ٢٤٢٦٦٠

السنين لم تكن نفسيتنا متخاذلة فقد انبعثت آمال عظيمة ونهضت
الغزة القومية في القلوب ، وشهدنا لحظات سعادة عميقة وانتصارات لا
تنسى . فاللون الذي يقلب على حياتنا لون اخضر بهيج ، وفي مثل هذا
الاطار المشرق يصبح الادب المشائم المعلق على الصليان ابعدا ما يكون
عن التعبير عن نفسية الامة . وصف له الا ان ابداءنا وقفوا عن التعبير
عن مشاعرهم وراحوا يكررون ما يقول الاديب العربي . ولذلك نجد
القومية العربية تقني بينما مسجلاتهم تديع النواح وصراخ العدم .
والفجر يتنفس على روايتنا اجمل ما يكون بينما تشع قصائدهم الظلام
والسوت .

٥ - الحلول والمقترحات

يبدو لنا ان الدواء الناجع في مثل ازمئتنا ان تكون لنا فلسفة
شاملة ، تمس كل ما هو جوهري في الحياة العربية ، وتقصر المبادئ
والمثل الكاملة التي ترفع مجتمعا الى ذروة الكمال . ومن دون هذه
الفلسفة لا نستطيع ان نجابه عدوا غزا حياتنا على الجهات كلها . والحق
ان افتقارنا الى نظرية فلسفية كاملة للحياة العربية ، باعادها كلها
يجعلنا مضيئين لا ندري اين نتجه ولا ماذا نأخذ او نددع . فلقد دخل
حياتنا من العلوم والفنون والفلسفات ما قلب تفكيرنا واحداث في جونا
الفكري بليلة خطيرة وانشقاقا في وجهات النظر . ولذلك نرى المثقفين
في العالم العربي منشعبين في الموضوعات كلها ، كل يدين بمذهب .
وقد يقال ان هذا من الحيوية فنقول انه ليس كذلك ، فانما يكون
الخلاف من علامات الحيوية حين يكون المخالفون قلة في مقابل اجماع
الاجلبية على شيء ما . اما عندما يزول الاجماع ولا يبقى الا الخلاف فان
ذلك ناقوس الخطر يدل على قيام تخلخل ذاهب في الاساس الفكري للامة .
اما بنود هذه الفلسفة التي نطلبها فينبغي ان تدعو الى وضعها
الحكومات العربية ، على ان تجمع لها اهل العلم والفضل والنظر
والعروبة ، فيتفقوا على ما ينفع وما يضر ، ويحددوا الطريق . فاذا
اجتمعوا على شيء اخذت الحكومات على نفسها تطبيق هذه الفلسفة
تطبيقا كاملا بالوسائل التالية :

- ١ - تعديل مناهج التعليم في المدارس العربية تعديلا يتناول
الجذور والاسس مع اللاحاح على موضوع اللغة العربية ، واطافسة
موضوع الاخلاق الى السنوات كلها .
- ٢ - انشاء مؤسسة عربية كبيرة تشرف على الترجمة وتنسق
جهود المترجمين العرب في ديارهم كلها . وسيكون من واجب هذه
المؤسسة ان تدرس ما يحتاج المواطن العربي الى ترجمة دونما نظر الى
عالية الاسماء ، فقد يكون الاديب عالما وتكون فلسفته مناقضة لاهدافنا
فتسئء الينا بدلا من ان تخدمنا .
- ٣ - انشاء قانون جديد للطباعة والنشر يجعل الصحافة والانتاج
في خدمة الامة العربية لا في مصلحة المؤسسات الاجنبية وتجار الافكار
والقيم . وهذا كفيل بان يطهر الاسواق من كتب الجنس والابتذال
والسطحية .

٤ - تحديد مجال الاذاعات وخاصة المرئية منها ، ووضع فلسفة عامة
لمناهجها تراعى فيها مصلحة المواطن . وستترفع هذه الفلسفة عن اقرار
افلام العصابات والسفاكين وروايات التفسخ الخلقي ، لان مشاهدة
الصبيان والبنات لمثل هذه الاشرطة كل مساء حري بان يهدم كل ما
تبنيه المدرسة والتربية المنزلية من مثل اخلاقية .

واخيرا ارجو ان يعني المؤتمر باقامة جمعية موحدة للادباء العرب
لها فروع في كل قطر ، تعمل في نشر التراث العربي وكشف جماله
للجيل الناشيء ، باقامة معارض الكتب والقراءات والحاضرات وتنظيم
المناسرات واصدار المجلات وتشجيع التأليف المتزن السليم . ونحو
ذلك ومن الله التوفيق . (١)

نازك الملائكة

البصرة

(١) يطالع القاري ، التعليق الذي القاه الدكتور سهيل ادريس على
هذه المحاضرة في مكان اخر . (التحرير)